أولا : لمحات من حياة العقاد

انه من الضروري عند دراسة أي نص ادبي ، التعرف إلى صاحبه ، والوقوف على أهم ملامح حياته ، ومظاهر بيئته ؛ حتى يمكن التعرف إلى ظروف النص وملابساته ، وإمكانية نقده نقداً صحيحاً

و' العقاد " قد أقرّ هذا المبدأ أو هذه الحقيقة . إذ رأى أن معرفة البيئة ضرورية في نقد الشعر في أي أمة وفي كل جيل [1] .

ومن ثم فإننا عند دراسة رؤية " العقاد " أو " الجزء الأول " يكون من الضروري التعرف - دون استقصاء - إلى أهم ملامح شخصية " العقاد " كي تكون الدراسة مكتملة الجوانب على الرغم من أن حياة العقاد " وسيرته مسطورة في كتب كثيرة . لكن الدراسة تقتضي الوقوف على أهم هذه الملامح في إجمال يغني عن التفصيل

ففي وقت ترزح مصر بكاملة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٩٢م، وتتعدد سوءات هذا المحتل وتتعاقب أرزاؤه وجبلوته على الشعب المصري - وتتدخل بريطانيا في كل أمور مصر واحتياجاتها لنفوذها وسلطانها، وإلغائها للدستور ومجلس النواب وتجريدها من كل سلطان، وتجريد الشعب من جيشه الوطني في ظل هذه الظروف وُلد هذا الاحتلال وذلك الكتاب ولد الشاعر' عباس محمود العقاد 'وبالتحديد في ٢٨ من يونية سنة١٨٩٨ بمدينة أسوان التي ترجع معالم الحضارة المصرية القديمة،والتي أسهمت في تكوين وتشكيل شخصية 'العقاد' وصفاته وطباعه [2]

١- انظر شعراء مصر وبيئاتهم في التاريخ الحديث - عباس محمود العقاد ص٣ - نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٣

٢- انظر سيرته وحياته في هذه الكتب - ع الشباب وأيام الشيوخ في جزء أنت . والمقالة في أدب العقاد ومع العقاد . و مفكرون والسياسة في مصر المعاصرة . و أدباء في صور صحفية وشاعرية العقاد في ميزان النقد . وجريدة الفصيلة المعاصرة . ومجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧٦ والعقاد الرجل والقلم الى غير ذلك من الكتب

وفي هذه المدينة حصل العقاد على الشهادة الابتدائية ، التي لم يتجاوزها في تعليمه الرسمي . وأصبح أستاذاً لنفسه في مراحل حياته المختلفة . فاستطاع أن يتقن اللغة العربية إتقاناً ساعده على قراءة عيون التراث العربي الأدبي والديني واللغوي ثم تمكن من اللغة الإنجليزية التي كان يتلقى بها دروسه في المدرسة [1] الأمر الذي أتاح له - فيما بعد - قراءة أصول الثقافات العربية والنظريات الأدبية والفلسفية وساعده ذلك في الاطلاع على أعمال بعض الكتاب والشعراء العالميين أمثال كارليل " و " هازلت " و " لي هنت " و " أرنولد " هذا بالإضافة على عمله بالصحافة ومشاركته في الحياة السياسية والأدبية - بعد انتقاله إلى القاهرة - وقد غلبت عليه في كل تلك الدرعة النقدية

كما أنه كان في بواكيره الأدبية ينظم الشعر الوصفي والعاطفي ، ولم يتجه في شعره إلى المدح وتملق أصحاب السلطان ، بل غلبت عليه النزعة العاطفية وبخاصة في الجزء الأول والثاني من شعره تقريباً - ولا أدل على ذلك من تلك القصائد ، لسان الجمال ، ومناجاة ، ومتى ، وليلة الوداع ، وخواطر الأرق ، والحب الأول التي هي موضوع الدارسة [2] .

وقد عمد هو وزميلاه " شكري " و " المازني " إلى نزعة تجديدية في القيم والمعاني الشعرية بعيداً عن المحاكاة والتقليد

وهذه النزعة لم تكن فردية بحيث تبرز في الحياة ثم تتلاشى لكنها كانت طليعة جيل جديد غير " شوقي " و " حافظ " و " مطران " ، وقد ساعد هذا الجيل أنه كان متسلحاً بالثقافة العربية الواسعة ، بالإضافة إلى بعض الثقافات

١- حياة قلم العقاد ص ٦٢ ، كتاب الهلال ١٩٦٢

٢- فطر العقاد والتجديد في الشعر ، العوضي الوكيل ص ٨٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١

الاحيية وقد أطلق على هذا الجيل " جماعة الديوان " نسبة إلى هذا الكتاب النقدي الذي أصدره " العقاد " و" المازني " عام ١٩٢١ . وأودعوه خلاصة فكرهم ونقدهم للتيار المحافظ وشعرائه أمثال " شوقي " و " حافظ " و" عبد المطلب " وغيرهم . وإن لم يحل الكتاب (الديوان) من بعض التحامل على ' شوقي ' وبخاصة من جانب ' العقاد ' لكننا نستطيع القول بأنهم قادوا حركة التجديد وأثروا تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فيمن أتى بعدهم من الشعراء أو عاصرهم [١] وأسهموا في توجيه الشعر العربي الحديث الوجهة الوجدانية التي لا تزال تلازمه حتى اليوم على الرغم من تطور الوجدان من الفردية إلى الجماعية [٢]

وإذا ما جاوزنا هذه الجماعة إلى قطب من أقطابها وهو " العقاد " والتعرف إلى مفهومه للشعر نرى أولاً أن شعره صورة لحياته بكل ما اتسعت له هذه الحياة من ألوان المشاعر وضروب الأحاسيس . وهذه هي النقطة التي قامت عليها فلسفات " العقاد " ودراساته الطويلة في تحديد نظرته للشعر .

فالشعر عنده صورة من التعبير عن الحياة الإنسانية من خلال الذات ويوحي من الإحساس الصادق . كما أنه امتزاج مستمر بين عالم النفس وعالم الحس . وتلك هي الصورة التي نلتقي فيها حقيقة الإنسان إنساناً وحقيقته شاعراً. كما يرى أن الشعر هو المحك الذي يلتقي فيه الفكر بالوجدان . فلا يمكن أن يكتمل عمل شعري جيد دون أن تجتمع فيه عناصر الفكر وخلجات الأحاسيس والوجدان .

١- انظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د. عبد العزيز الدسوقي صـ١٦٨ . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م

٢- انظر في الشعر د. محمد مندور صـ١٢٥ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

كما أنه يرى أن الشاعر هو ذلك الذي أتخذ من حياته موضوعاً لشعره، يعبر فيه عن ذاته وخصائص شخصيته تعبيراً ينصهر فيها من حيث صلتها بموضوعات الحياة ومعانيها، وهذا يعني أن كل شيء في هذه الحياة يصلح أن يكون موضوعاً أو محلاً للشعر مهما كان معروفاً أو مكروراً، مادام يضفي على الحياة والأشياء معانيها الحقيقية

لذا يرى "العقاد" أنه لولا الشعر لما أشرقت على الحياة صورة من صور الحس ولظلت على حالها ونفسها حرساء جامدة ما لم يصورها الشعر، وعن هذه النظرية يقول العقاد [1]

والشِّعرُ ألسنةٌ تُفضي الحياة بها
إلى الحياة بما يطويه كتمانُ
لولا القريض لكانتْ وهي فاتنة
خرساء ليس لها بالقول تبيانُ
ما دام في الكون ركنٌ للحياة يُرى
ففي صحائفه للشعر ديوانُ

وهذا معناه أن الشعر حول ما في النفس إلى أناشيد فياضة بالأحاسيس والمشاعر، يعبر فيها الشاعر عن الحياة وما فيها من مكنونات وروائع، وهذا ما أكده "العقاد" في مقدمة الجزء الأول لديوانه إذ يقول [2] "الشعر يعني الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات، عن ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك، ممترحة طويتك بطويته الكبيرة بكل قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش، وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت"

١- ديوان العقاد المجلد الأول صـ ٧٣ منشورات المكتبة العصرية - بيروت - لبنان
٢- مقدمة الجزء الأول من الديوان

ومن ثم فقد تناول " العقاد " في شعره كل الأغراض ومظاهر الحياة . فتناول الطبيعة بكل ما فيها من عناصر الجمال والفتنة وكل ما يحرك خوالج قلبه وينير أحاسيسه . كما تحدث عن الحب والغزل الذي اهتم فيه بوصف الروح والتماثل بعيداً عن الوصف المادي الذي أعده تعبيراً عن الغريزة الحيوانية الذي ينبغي أن يرتفع عنه الشاعر حين يصف علاقته بالمرأة وفي القصيدة التي بين أيدينا تتجسد هذا المعنى . ويظهر من خلالها أن " العقاد " يوجد في غزله بين متعة الحس ومتعة النفس مما يدل على صدقه الشعوري ويظهر خصائص نفسه . وخصائص من يحبه بحيث يتألف من ذلك كله غزل نضج فريد يعجب بالجمال ويتحاوره الى الإنحناء باعتزاز الند والإدلال على الأيام إدلال ظافر

كما أنه من خلال غزله يصلنا بالطبيعة وأبنائها صلة الود والرحمة والتعاطف حيث يقوم له جميع أبنائها بوظيفة الرسول الأمين بينه وبين حبيبه، وحيث يتسق الجميع في لحن واحد جميل . بحيث ينقلنا من خلال تعبيره إلى عالمه لنشاركه مشاعره في الإحساس الكلي بصلتنا بالحياة قوية دفاقة تسري في شعورنا [1].

كما أنه استخدم الطبيعة استخداماً رائعاً حينما تغزل كما سنرى في قصيدة " الحب الأول ".

الجدير بالذكر أن حياة " العقاد "مليئة بالملامح المتعددة . لكننا اقتصرنا على أهم الملامح التي تبرز منهجه الفني واتجاهه الشعري ونهجه في غزله وهذا ما يعنينا في هذه الدراسة

١- انظر شعريه العقاد في ميزان النقد الحديث د. عبد الحي دياب ص ١٢٦

ثانيا : دراسة النونية (الحب الأول)

يقول العقاد :

يُهْنيـك يـا زهـر الطيـر وافـان
الطيـر يَنْشُـد والأفنـانُ عيـدانُ[1]

طُوبـاكَ لسـت بإنسـان فتشـقيني
إني ظَمِئتُ وأنـتَ اليـومَ ريـانُ[2]

هـذا الربيـعُ تجلّـى فـي مواكبـه
وهكـذا الـدهر آن بعْـدها آنُ

تفتحتْ عنه أكمـامُ السـماء رضًـى
وزفهُ من نعيم الخُلْـدِ رضـوانُ[3]

وشائعُ النُّـور فـي البُسـتان باسـمةٌ
والأرضُ خاليةٌ ، والماءُ جَـدْلانُ[4]

الشـمسُ تضْـحكُ والآفـاقُ صَـافيةٌ
جلْواء والرَّوضُ بالأنْمـارِ فيْنـانُ[5]

١- الطيار جمع طائر - الغان الأولى الأنواع ، والأفنان الأغصان عيدان جمع عود وهو ما جرى فيه الماء من الشجر وتجمع على عيدان وأعواد

٢- طوباك طوبى فعلى من الطيب ، كان أصله طيبي ، قلبوا الياء واوا للضمة قبلها ، ويقال طوبى لك وصوباك بالإضافة لكن العرب لا تقول طوباك على رأي أكثر النحويين لأن الصواب أن تقول صوبى لك أن فعلت كذا وكذا ، ومنه قول الله تعالى ﴿ طوبى لهم وحسن مآب ﴾ أي حسنى لهم ويجوز أن صوبى شجرة في الجنة - ريان ضد العطش ، وشيء ريان أي تروى وتشبع

٣- رفـ الرفيف سرعة الحركة مع تقارب خطو وسكون ، ورفت الريح رفيفا ورفرفت هبت هبوبا لينا وداعبت والمعنى أن الزهر قد نضج وأصبح في صورة جميلة رائعة يتمايل مع الريح الذي منحه الحياة

٤- وشائع النور وشائع الثوب طرائق نسجه ويعني طرائق نسج الورد في البستان توحي بالفرح والسرور الأرض خالية خلت أي صارت ذات خلو وتخلت لبست حليا ويقال للشجرة إذا ورقت ونضرت خالية - جدلان الجدل بالفتح الفرح وجدل بالكسر ، بالشيء بعض جدلا ، فهو جذل وجدلان فرح والجمع جذلى والأنثى جذلة والمعنى أن الماء يترقرق فرحا وسرورا

٥- جلواء يقال جبهة جلواء واسعة والسماء جلواء أي منسحبة وبيئة جلواء منسحبة الصبيحة - فينان منعم

وللنَّسيم خفوقٌ في جوانبه
وللطُّيور ترانٌ ، ألحانٌ [1]

في كل روْض قرى للزَّهر يَعْمُرهَا
يا حبّذا هي أبياتٌ وسُكانْ
مُستأنساتٌ سَرى ما بينهنَّ عبق
كما تراسل بالأشْواق حِبان [2]
الوردُ يحمر خجْلاً في كمائمه
والياسمينُ على الأغْصانِ ميْسانْ [3]

يستهل "العقاد" معارضته (الحب الأول) بوصف الطبيعة وصفاً ينم عن مقدرة فائقة في الإحساس بما يحيط حوله من مظاهر الجمال والسحر.

فقد فض عنها عقالها الحسي الظاهر ، وأحاطها بهالات من خواطره وأحيلته السامقة . وسوانحه النفسية ، التي تنطلق بعمق إلى الكون والوجود والتغني بالطبيعة والحب . وتصوير أشواق الهوى . وبث قلبه مع نبضات الطبيعة وخفقات أحاسيسه نحو عناصر الطبيعة والكون . والامتزاج مع الروح المستكنة للوجود.

١- خفوق : خفق : اضطراب ، وقيل خفق الرجل برأسه من النعاس : أماله ، وقيل إذا نعس نعسة ثم نبه ، وخفق النجم إذا تلألأ وأضاء ، وريح خفيقة سريعة ، والمعنى : أن النسيم يضرب جنبات الروض فيختال فرحا وسرورا - ترانيم الريح والترنيم : تطريب الصوت ، والترنم : التطريب والتغني وتحسين الصوت ، ويطلق على الحيوان والحمام

٢- عبق : عبق : بقي ولازم ، وعبقت الرائحة أو الطيب في الشيء : تعلق به فلا يذهب عنه - حبان : الحب بالكسر : المحبوب والأنثى حبة وجمع الحب أحباب وحبان وحبوب

٣- كمائم : من الفعل كمم أي ستر يقال كمم الشيء : ستره ، والكم : برعوم الثمرة أو غلاف الثمرة وهو ما يستترها ، والجمع كمائم وأكمام - ميسان : نائم ، وقيل الوسن أول النوم ، يقال وسن فلان إذا أخذته سنة النعاس ، وميسان تطلق على الرجل والمرأة

فقد بدأ يرسم صورة رائعة مكتملة الجوانب متناسقة الألوان ، كأنها صورة حية ناطقة مغنية تفوح بالرائحة الطيبة . فقد ساعده إحساسه الرهيف في تصوره الطبيعة وقد ارتدت بالأزهار والأشجار . وتتجلى الربيع في أزهى صورة بعد أن أقفرت الحياة من مظاهره الخلابة ، بالإضافة إلى الأشجار وقد أينعت . وسرت الرياح المحملة بعطور الأزهار والورود ، فاضمخت الأرض وكأنها بستان متناسق الألوان والتلال يتزين الماء من حوله

ويأتي الشاعر إلا أن يضيء لنا هذا المنظر البديع بالشمس ذات النور والضياء الساطع في الأجواء الصافية ، ويطل على الأرض وقد امتلأت بالبساتين المحملة بالأشجار التي تتلألأ في هذا الضوء كالذهب

ويكمل الشاعر الصورة بإحساسه المرهف بامتزاجه بالطبيعة ، فيرى النسيم وقد سرى بعبق الأزهار وترنيمات الطيور التي تشدو بأصواتها أعذب الألحان وهي تتمايل مع الأغصان .

ويتجاوب الشاعر مع أصداء نفسه الحالمة ، فيرى الأرض وكأنها قرية عمرت بالزهور المتعددة الأنواع والألوان التي يفوح شذاها طيباً ومسكاً وهذه المناظر الخلابة وتلك اللوحة الرائعة حركت في نفس الشاعر كثيراً من الأحاسيس الحية النابضة والتي أداعها في بقية القصيدة كما سنرى

وللقُرنفُـــل أثْـــوابٌ يتوعيـــا
عن البلور صنّاغ الكف رقّـان[1]
وللنفســـح أمْشـــاحٌ ممشّـــكةٌ
كأنه راهبٌ فـي الـدّير محـرّان[2]

١- رقان مزركش بكسر الكاف

٢- امشاح النسج الكساء من الشعر والجمع مسح - محران يقال رجل حزبان ومحران شديد الحزن ، وحزنه الأمر يحزنه حزنا واحزانه ، فهو محزون

وحبـــذا زَهْـــرُ الليمـــون يُسْـــكرنا
منهن جَام خلا من سلّـــه الحـــانُ[1]
واللّيـــلُ يُحييـــه والأطيـــار هاجعـــةً
بلابـــل وشَـــحارير وكـــروانُ[2]
مؤذن الطّيـــر يـــدْعُو فيـــه محتســـباً
فيسْـــتَجيبُ لَـــهُ بـــرٌ وعيـــانُ
والصبحُ فـــي حُلـــلِ الأنْـــوار طـــرَّزه
في الشرقِ والغرب أسْحارٌ وأصْلانُ[3]
كأنما الأرضُ في الفـــردوس ســـابحةٌ
يحذو خُطَاها من الأمْـــلاكِ ربـــانُ[4]
ضـــاقَ الفَضـــاءُ بمـــا يجويْـــه فـــرح
فكل مـــا فـــي فضـــاء الله فرْحَـــانُ
إلا المحـــب الـــذي لا حبّـــه دنـــس
ولا مودتـــه حـــد وإدهـــان[5]
نعـــاه عـــن عـــرس الـــدنيا شـــواغله
إن الحداد عن الأعـــراس شـــغلان[6]

١- الجام : اناء للشراب والطعام من فضة ونحوها وقد غلب استعماله في قدح الشرب والجمع جسم و جوم
٢- البلبل طائر حسن الصوت يألف الحرم ويدعوه اهل الحجاز الدر كروان جمع كروان ، وهو طائر صغير لا يبعد عن اللّيل - الشحارير جمع شحرور طائر اسود فريق العصفور
٣- اصلان جمع اصيل وهو الوقت بعد العصر الى المغرب - أسحار جمع السحر وهو اخر اللّيل قبيل الصبح ، وقيل هو من ثلث اللّيل الأخر الى طلوع الفجر
٤- حذ يحذو حذوا وحذاء ، زجر الابل طلب وسائقها ، وتحاث هي حثا تعصب تعصبا ، والحذو سوق الابل و الغناء لها - ربان الرمان بفتح الراء وضمها الجماعة
٥- الحب الحداع والحبث والغش والغدر حب - ادهان الادهان والمداهنة المصانعة والليان وقيل المداهنة اظهار خلاف ما يضمر والادهان الغش والملق والنفاق
٦- الحداد ثياب العاتم الأسود ، والحداد والحد من النساء التي تترك الزينة والطيب بعد زوجها

وبعد أن وصف الشاعر بحسه المرهف وذوقه الرفيع جانباً من الطبيعة بما فيه من مظاهر الجمال من أزهار وأطيار وأشجار ذات أفنان وعيدان وشمس مضيئة وأفاق صافية ، وطيور تشدو بأعذب الألحان والترانيم بعد هذه الصورة الرائعة المتناسقة ، أخذ الشاعر في وصف الزهور والورود بأنواعها وألوانها وروائحها ، مما يدل على رقة مشاعره ودقة ملاحظته ورهافة إحساسه وحبه للجمال وللطبيعة . فالقرنفل قد اكتسى من الحلل أنواعاً مزركشة الألوان . والبنفسج قد لبس أثواباً تفوح مسكاً وعطراً ، وهو في لونه الهادي يشبه راهباً انقطع للعبادة في تبتل وخشوع . وزهر الليمون الذي يجلب الأنظار ويسكرها .

وإذا كان النهار قد جمع هذه المظاهر الجلالة والفواحة بالطيب . فالشاعر لا ينسى الليل بما فيه من مظاهر جمالية ، فالبلابل والشحاريز والكروان تغرد بأصواتها العذبة في جنبات الليل ، وقد هجعت الأطيار الأخرى إلى النوم والراحة . وفي الصباح تغدو الطيور من وكناتها تسبح في الفضاء فرحة مسرورة ثم يعود الشاعر إلى النهار والنور الذي كان يعشقه ويقول فيه [1] :

" أحبه صافياً وأحبه مريحاً ، وأحبه مختمعاً وأحبه موزعاً وأحبه محروساً كما يحرس في الجواهر ، أحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر وأحبه في العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .. والحق أنه لا فضاء حبذا يكون النور وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء "

وهذا يعطينا إشارة إلى أن العقاد كان شفافا يحب النور حتى أصبح ظاهرة في تراثه ، وهذا ما نلحظه في قوله

١- في بيتي - العقاد صـ ٥

والصبحُ فـي حُلـل الأنْـوار طـرّزه

في الشرقِ والغربِ أعْلامٌ وأصْلانْ

فالنهار قد تشكل بهذين الوقتين وقت السحر الذي هو بداية النهار ووقت الأصيل الذي يعطي لوناً ذهبياً . والأرض قد ارتدت بهذه الألوان وتلك الحلل فكأنها سابحة في الفردوس تسوقها جماعة من الملائكة في موكب مهيب يوحي بالفرح والسرور للكون كله إلا ذلك المحب الذي أخلص في حبه . ولم يدنسه بحداع أو مكر أو نفاق . فلم يعدلّه مكان في عرس الدنيا . إذ إنه انصرف عنها بشواغله وحبه . فلم يعد همه تلك المناظر وهذه المناهج بقدر ما يهيم بحبه وتباريحه وهذه إشارة إلى ما في نفس الشاعر من حب وهوى شغله عن مظاهر الجمال في الطبيعة. ولم يعدله بها اهتمام فهو في شغل شاغل بهذا الحب

وبهذا نرى الشاعر وقد اتسعت مادة شعره في هذه الأبيات . إذ استوعبت الحياة بكل ما فيها من مناظر طبيعية تخلب الأنظار وتستهوي لها الأسارير مما يدل على نسيج نفسي موزون تجاه الطبيعة بما فيها . والتي حركت لديه تلك المشاعر. وقد شرح الشاعر مدى ارتباطه بالطبيعة وغيرها من مظاهر الكون فيقول [1]

" فليست الرياض وحدها ولا الحدائق ولا الكواكب هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة واستجاشة الخيال . كل ما نخلع عليه من إحساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله دبيبا ونبث فيه هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر لأنه حياة موضوع للحياة وإن التصور لهو خير معوان للإحساس وشاحذ للرغبة أو للنفور "

١- مقدمة ديوان عابر سبيل صـ ٥٤٨ منشورات المكتبة العصرية

ومن هذا المنطلق محى " العقاد " يلتقط من مرئيات الحياة وبخاصة الطبيعة ومشاهدها ما يحسنه صورا بارعة التشكيل والتنسيق

مـا للطبيعـة تحلـو حقـب ربيتهـا
حتى لتكـاثر منهـا اللمـح ألـوانْ
كلما مررتُ بس طـول مـا صـنعتْ
ليس يُخطئها فـي الصـنع إتقـانْ
رُحماك يارب إن النـاس قـدْ غلبـوا
على الوقـار ، وللأهـواء شـيْطانْ
لقـدْ علمـت بأنـا لا قـرار لـه
مع الحمال ، وأن الصبر وهنـانْ[1]
فمـا لنـا كلمـا دارتْ نواظرُنـا
مُدّت إليهن أوهـاقٌ وأشْـطانْ[2]
مـن كـل ألْقـه بالحُسـن طلعتـهُ
مُستملح الشّيه ، يعْطو وهو خَتلانْ[3]
تنْصاحُ طرتـه عـن صُـبح غرتـه
فيفصحُ الصُبحَ وحة منه ضـحْيانْ[4]

١- وهنان الوهن الضعف في العمل والأمر ، ويقال رجل واهن و مرأة وهنة

٢- أوهاق الوهق الحبل تشد به الابل والخيل لئلا تند - اشطان - الشطن الحبل الطويل الشديد الفتل يستقي به وتشد به الخيل

٣- الألقة متناسقة ، والألق والالاق الأولق الحسن ، وألق يألق لقا وتألق و ألق يألق ائتلاقا لمع و ضاء وبرق الألق لا مطر فيه والمعنى على ذلك اما ان يكون من محبوبة بالحب او من كل براقة بالحسن او معصية والثاني ارجح - يعطو يتطاول الى الشيء ليتناوله ، والمعنى هنا يمد جيده كي يراه المحبوب - طلعته روئيته ، يقال حيا الله طلعتك ، وطلعة الرجل شخصه وما طلع منه - الته الضعف والكبر ، وقد تاه يته تيها تكبر ويريد هنا الاغترار بالنفس واستذلال المجتمع

٤- تنصح تستتر وانصاح السحر انصبح ما استتر واضاء والضحى - طرة الهيئة الحسنة والجمال

إذا النَّهـــارُ تجلـــى مـــن أســـرته
صحتْ قلـوبٌ تحيد ه ، أجْفـانُ[1]
ترنّح اللـيل فـي عِطْفيـه واتّسـقتْ
فيه الحُلي ، فهو للأبْصار ميـدانُ[2]
ويســتهلّ بـــروض مـــن مُلاحتـــه
كما استهلّ بروض الزّهـر نَيْسـانُ
بالغصن شَـبهةُ مـن لـيسَ يعرفـهُ
وإنّمـــا هـــو للـــرائين نسْـــتانُ
وكلّ نَمائط في غصـن علـى شـجر
أس ووردٌ وسـوسـنٌ وسوْسـانُ[3]

بعد أن وصف الشاعر بعض ملامح الجمال في الطبيعة في صورة مفصلة ، اعتمد فيها على الألوان المتناسقة بين الزهور والورود ، والتناغم بين الأطيار ، ووصف الليل بما فيه من مظاهر الحياة والنهار بأدواره ، فكأنه أحس بعد ذلك أنه لن يستطيع حصر كل ما في الطبيعة من مظاهر جمالية أحد يتبعها وصفاً محملا متمثلاً ما الذي دعا الطبيعة إلى إظهار هذا الجمال وتلك الزينة والتي اصبحت في حكم العادة الدائمة التي لا تتخلى مكانها ، لكنّ الشاعر بعد ذلك التساؤل يدرك أن وراء هذه الزينة المعرية وهذا الجمال الصارخ صانع متقن هو الله سبحانه وتعالى ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فلا يملك الإنسان تجاه هذا الصنع

١- أسرته : الأسر : القوة والحبس ، والمعنى أنه كما تصحو العيون لمطلع النهار كذلك تنتبه القلوب لمطلع وجهه
٢- ترنح : تمايل من السكر وغيره والمعنى هنا اهتز ومال ، عطفيه : تعطف : المنكب عضبه شبه من بن رقبته إلى وركه والجمع اعطاف
٣- نسوس : نبت أعجمي معرب ، وهو معروف وجنسه كثير ، وصبيه الأبيض من الأسبة سداء المحكم

السديع المحكم الذي يلف جنبات الكون كله ، ويشد الأنظار ويحرك المشاعر والأحاسيس إلا أن يرجع الأمر لله خالق الكون ومبدعه ، ذلك لأن بعض النفوس ليست لديها قدرة على التمييز بين الجمال فيكون إغراء وفتنة لها ، ولم لا وكل ما تقع عليه الأنظار يوحي بالجمال ويأسر اللب ويثير المشاعر

ولعل الشاعر يقصد بالصنعة المحكمة هنا محبوبته تلك التي اجتمعت فيها كل مظاهر الجمال والبهاء حتى لكأنها أصبحت الطبيعة نفسها بكل ما فيها من مظاهر الفتنة والإغراء ولفت الأنظار وتحريك المشاعر والأحاسيس وهذا ما نلمحه في قوله

فَمَا لَنَا كلما دارتْ نواظِرُنَا
مُدَّت إليهن أعْنَاقٌ وأشْطَانُ
من كل ألْقَى بالحُسن طَلْعَتَهُ
مُسْتَمْلِحُ التِّيه ، يعْطُو وهو خَجْلانُ

فمحبوبته هذه تلمع وتتلألأ جمالاً وحسناً يبهر العيون ويسكرها ، ومن دلائل هذا الجمال أدبها وحياؤها ؛ فهي شد جيدها في حياء وخجل لتنظر إليه ، كما أنها تتمتع بطلعة دورانية ووجه منير تصحوله القلوب وتتحرك المشاعر والأحاسيس كما تصحو العيون لطلع النهار.

ونحاسب ذلك فإنها تتمتع بقوام وقد يختال لبناً ورقة كالغصن تهفو به الريح بمنة ويسرة من طراوته ولينه .

كما يزيد من جمالها ونهائيا تلك الحلى التي اتسقت عليها . فصارت محطاً للأنظار وميداناً يجتمع حوله محبو الجمال والبهاء .

ويتحاور الشاعر مع نفسه الحالمة المحبة للجمال الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، فيراها وقد جمعت في عينيه ، حتى صارت ستاناً يتألق بالأزهار البصرة ، والورود المعطرة والثمار المتنوعة والمناظر الخلابة التي تلفت الأنظار وتبهر إليها القلوب ، وليس عجباً كما يراه غيره

ونستنتج من هذا كله أن الشاعر قد جمع لمحبوبته جمال الروح بجانب وأدبها ، وجمال المظهر بوجهها الصبوح وقدها الجميل الرائع

ولعل السر في لجوء الشاعر إلى الطبيعة يصف بها محبوبته أن الطبيعة محبولة على هذا الجمال الرباني الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، والشاعر ولع بهذا الجمال الطبيعي ؛ لذا فقد خلع على محبوبته من هذا الجمال بل إنه أختار أجمل ما في الطبيعة وهو البستان بنضرته وخضرته وثماره وحيويته ، ليجتمع لها صفات الحسن والكمال والحيوية والرشاقة .

هذا بالإضافة إلى أن " العقاد " كان يعتبر جمال المرأة أسمى مراتب الجمال ؛ لذا فقد استلهم من الطبيعة أجمل ما فيها وخلعها على محبوبته . وقد جاءت كل هذه المعاني في أسلوب قوي رصين .

يا منْ يراني غريقاً في محبته
وجداً ، ويسألني هلْ أنت عَصّان[1]
واصيعة الحسنِ أبْدِيه وأكتمُهُ
ومن عُنِيْتُ بهِ عَنْ ذاكَ عُفّالُ
لي في مديحك أشْعارٌ أصُنْ بها
على امرئ فخرهُ عرشٌ وإيوانُ[2]

١- الوجد شدة الحب ، عصان العصص بالماء اذا شرقت به أو وقف في الحلق ولم يكد يساغ ، ورجل عصر غاص
٢- اصن بها ابخل بها

على محيّاكِ من وشْـــي الصـــبا روَع
وللمُحبـــين أحـــداقٌ وأعيـــانْ [1]

فقـــيمْ تعـــذلُهم إن رَاح يـــاظرُهم
بحْسن وجْهكِ يهذي وهو ولْهـانْ [2]

ما الحُسن ذنباً ، فمـــا للحـــب تحســـبهُ
ذنباً من النّاسِ لا يمْحُـــوه غُفْـــرانْ.

همـــا شَـــقيقَان فـــارفقْ أنْ تحيلَهُمـــا
ضـــدَّين بيْنهمـــا نـــأيٌ وهُجـــرانْ

من علـــم النّـــاس أنّ الحـــبّ مأثمـــةٌ
حتى كأنّ ليس غير البُغضِ إحْســـانْ

هبهـــا جِنَايـــةَ جَـــان أنـــت آثمُهـــا
ما كانَ يُعصـــم لا إنـــسٌ ولا جـــانْ

إنّ الجســـومَ مثنـــاةٌ جَوارحُهـــا
إلا القلوب فَصـــيعتْ وهـــي أخْـــدانْ

لكـــلّ قَلْـــبٍ قَـــرينٌ يُـــنتمْ بـــه
خَلق وخلْق فهل يُرضـــيك نقْصـــانْ

إنّ التّعـــاطُفَ بـــالأرْواح بُغْيتُنـــا
وفي الوجوهِ علـــى الأرْواح عنْـــوانْ

١- روع صباحة وجمال - احداق الحدقة السواد الصغير وسط العين ويجمع على حدق واحداق - اعين عيون
٢- تعذلهم العذل اللوم ، والعواذل من النساء جمع عذلة اي لائمة

تمثالك الصخر أخطى منك إنْ نفرتْ

عنك العيونْ ، ولم يشملْك وجدانْ

ولما كانت هذه صفات محبوبته المعنوية والحسية ، فقد أراد الشاعر أن يطهر ولعه بها ومعاناته من حبه لها ، ذلك الحب الذي اشتد به وأضناه وتحير به ، فمرة يبديه ويظهره وأخرى يخفيه ويكتمه أملاً في إرضاء أو رضا محبوبته لكنه لا يلقى منها إلا الصد والهجران والتغافل ؛ على الرغم من كثرة مدحه لها بأشعاره التي هي خلاصة فكره ونبض مشاعره وأحاسيسه .

ثم يتساءل الشاعر إذا كان هذا هو جمال محبوبته فلِمَ اللوم على حبه لها مع أن الحب ليس ذنباً كما يتصوره كثير من الناس ؟ كما أن الحب قرين الحسن والجمال بل هما شقيقان لا ينفصلان بل بينهما تلازم وترابط ، وأنه لا يعصم إنس ولا حان من الوقوع في شرك حب الجمال وبخاصة المرأة الجميلة ، ولا ينكر ذلك إلا من تحجرت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم، فتصوروا أن الشقاق والهجر هما الحب والإحسان .

وبأسلوب تعلب عليه النزعة الفكرية بينّ الشاعر أن الحب لو كان جناية - كما يزعم الناس - فإنها جناية لا يتبرأ منها أحد ، وليس في مقدورهم أن يتخلصوا منها إذا ما التاطت بقلوبهم وعلقت بأرواحهم ، ويعلل ذلك بأن جوارح الإنسان متناة إلا القلوب ، فقد خلقها الله وصاغها في الجسوم واحدة، وكي تكون مثناة مثل بقية الجوارح فإنها تحتاج إلى قرين يكملها من الجسوم الأخرى كي يكون بينهما التعاطف الروحي

ونلمح من هذا أن " العقاد " كان ولعاً بالجمال ، وجمال المرأة بالذات فقاده ولعه بالجمال هذا إلى الحب فراح يبحث عنه في كل إمرأة جميلة تصادفه

ومن ثم حلب حياة " العقاد " العريضة من المرأة حسدما ينفق وشريعة الحب لا حسدما ينفق والتقاليد المتوارثة عن الدين والتي اعتنقها الآباء والأجداد . وتلك التقاليد هي الرواح . لكنه على الرغم من ذلك فقد استمتع بالمرأة وتألم ولدت له الحياة معها وتنغصت . فمنحته المرأة خير ما تعطيه لرجل وسامته شرما تسومه لرجل كذلك ؛ وقد ظهر ذلك في شعره الذي عبر فيه عن سعادته بالمرأة وحنه لها وولعه بجمالها حين تعاطيه الحب، وكذلك يظهر في شعره الذي درف فيه دموعه بسبب ما صنعت به المرأة حين يحلو الحب وتنطفيء شعلته [1]

ويستمر الشاعر في وصف ما يعتمل في صدره وقلبه من حب للجمال الذي يعد حداً لكل شيء. فيقول .

إنا لمن مَعْشَر حبُّ الجَمال لهم
حب لَما كان في الدُّنيا ومنْ كانوا
ليأمن الطَّير أنّا لا نكيدُ له
ولا يخفْ مكْرنا وحشٌ وعقبانُ[2]
لو تسمع الوُرْقُ نحوانا لكان لها
منّا غصونٌ نضيراتٌ وأحْضانُ[3]
أو كان يدْري حيىٌ الدّبت عفْتنا
لم تُغض منه بأيْدينا أعَيْصارُ [4]

١- انظر المرأة في حياة العقاد ، د / عبد اللحي دياب صـ ١١ ، دار الشعب ١٩٨٦

٢- العقبان العقاب طائر من العتاق ، ويقع على الذكر والأنثى ، وقيل هي عتاق الطير وساعه التي تصيد

٣- الورق الحمائم والحمر ورقاء ، والأورق الذي لونه بين السواد والغبرة - احصان يقال حصن الطائر يحصه يحضن حصنا وحصانة اي وجر عليه لتتريح ، ويقال حصن الطائر بيضه اذا ضمه الى نفسه تحت جناحه و هو المعنى المطلوب في هذا البيت ، والحصن في الانسان هو الصدر والعصدان وما بينهما وهي الطير للصدر والجناحين

٤- حيي يقال رجل حيي اذ حياء يورث تعليل وامرأة حيية

أو يَنظُرُ السَّائمُ النَّابي طوْيتَها
لم تَألف القفرَ آرامٌ وغزْلانُ [1]
ولا اتقى الحوتُ شرّاً حينَ يُبْصرنَا
إذا وقتَهُ شباكَ الإنسِ قيعانُ [2]
يا ليتَ أنَّ لَنا كَهْفاً نَعودُ بِه
إنْ راحَ يُقْزعنَا بَغيٌ وعدوانُ
ما ضرَّ قانصَها أن لا يكونَ لها
غيرُ الفَلا وحجازُ الأفقِ قُضْبانُ
أينَ الحمائمُ تشْدُو في أرائكِها
مِن الحمائمِ يشْويهنَّ مبْطَانُ
أو الطُّيورُ على السُّفودِ نَاضجةٌ
مِن الطيورِ تهاداهنَّ أفنانُ [3]
لو أطْلَقُوها كَما شَاءتْ لَكانَ لَهم
مِنها قِيانٌ كَما شَاؤا وندمانُ [4]

يفصح الشاعر عن انشغاله بمحبوبته التي تتمتع بذلك الجمال الأخاذ، الذي لا يعرف معناه ولا حقيقته إلا النفوس المخلصة، التي نرى أن حد الجمال إنما

١- السائم: الذاهب على وجهه حيث شاء والجمع سوائم ومنه سامت الإبل والماشية أي رعت. النابي: الثور الذي يبرح من أرض إلى أرض أي يخرج. آرام: الأعلام وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدي بها. وأحدها أرم. القفر: القترة الخلاء من الأرض وجمعه قفار وقفور، وقيل القفر مفازة لا نبات بها ولا ماء.

٢- قيعان: جمع قاع وقاعة رفيع وهي أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا ارتفاع فيها ولا انهباط، وما حواليه أرفع منه وهو مخصب المياه أو هي الأرض التي تنفرج عنها الجبال والأكمة.

٣- السفود: الحديدة التي يشوى عليها، والجمع سفاديد.

٤- ندمان: نادم الرجل مسامرة ونداها: جالسة على التراب واسديم: المنادم والجمع ندماء ونداما. والمعنى أن الناس لو تركوا الطيور لحالها لكان لهم منها أصحاب وخلان.

هو حب كل شيء ، وأنه مصدر سعادة لمن ينشدها في كل أحواله ، مع محبوبته مع الطيور مع الأشجار والوحوش والحيتان في المياه .

كما أنه أي الحب وسيلة لتهذيب النفوس ، وتعمل على صفائها ونقائها، وتهدي إلى معرفة الواحد والقيام به ، ولعل هذا هو منزع الرومانتيكيين في حبهم الذي كانوا ينظرون من خلاله إلى المرأة ، على أنها ملك هبط من السماء ؛ ليطهر قلوبنا بالحب ويرقي نعواطفنا ويذكي شعورنا، ويشجعنا على النهوض بأعباء واجباتنا الخلقية والسياسة والوطنية [1]، وأن الكون إذا خلا من الحب انطفأت الشمس ، وأن الله هو المركز الذي تنجذب إليه أصول الأشياء كلها ، والى صفة واحدة من صفاته يرجع الخلق والتقدير والاحياء والغرس والوجود والعدم تلك الصفة هي الحب .

وأخيراً فإن الحب مأمور العاقبة في تكوين الفضائل وفي تفتح المواهب ونضج العبقرية [2].

وبناء على هذه النظرة وتلك الفكرة نحو الجمال ، فقد تمثل " العقاد " لقاء محبوبته ، بين الطيور والحمائم والنباتات ، بأزاهيرها التي تتحاور مع هذا اللقاء، بين الشاعر ومحبوبته وتشهد كلها على عفة وطهارة هذا الحب ، وكذلك بين الحيتان وقد تطللت بهذا الحب الذي اصطبغت به كل عناصر الطبيعة

ثم يُلقي الشاعر نظرة نحو هذين القلبين ، (قلبه الذي يحترق شوقاً ومحبة كما تشوي الحمائم والطيور على السفود ، وقلب محبوبته الذي يتدلله فرحاً مسروراً كالطيور تتهادى بها الأغصان) ، ويرى أن ذلك من مفارقات القدرة

١- انظر الرومانتيكية ، د/ محمد عبيمي هلال صـ ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، نهضة مصر بالفجالة
٢- نفس الرومانتيكية صـ ١٤٥

الحالقة في الحب . تلك المعارفة التي تفهرأ بالظواهر والاشكال ، وتلعب بالأحاسيس والمشاعر . ويلتفت الشاعر إلى أثر هذه المعارفة فيرى أن هذه المشاعر التي تكمن في عيانة قلبه ومخاتل نفسه وتخترق منها أصلاعه تحتاج الى قرين يشعر بها ، ويتحاور معها

ولا يزال الشاعر يصف محبوبته ويبرهن على سبب تعلقه وشغفه بها فيقول

هلْ يعرفُ البيضُ أنّ الحسن جوهرةً
لها الثراءُ ، ثراءُ النفسِ ، أثمانُ
يَقْنوُ نفائسَه من لا يسوّمه
وقد يعزّ على اللآل قنيانُ[1]
يا جوهراً بتُّ أرعاه على أمَمٍ
رَعْى الشحيحِ ، ومالي فيه سلطانُ[2]

ما في يَدي منْه لا عينٌ ولا أثرٌ
ولي عليه معالِيْقٌ وأعْيانُ[3]
قد بلتُ ما بلتُ من حظٍ به عرضاً
وقدْ تولّى ، فحظّي منه فقْدانُ
إنّي إلى الرعْى من عينَيْكِ مُفْتَقِرٌ
يا ضوءَ قلْبي ، فإنّ القلْبَ مدْخانُ[4]

١- يقنو قنوا وقنوانا واقتناه كسبه قنيان ما يتحد قنية أي مكسب يسومه يرعاه
٢- امم الأمم القرب . يقال أخذت دلم من لمم أي من قرب وارعاه على امم اي على قرب
٣- العين جمع عباء ، وهي الواسعة العين - أعيار حواسين
٤- مدخان الدخن ظلم العيم في اليوم المطير ، والدخن الدس العيم الأرض الدخن يومئذ اذا اصبت واظلم

منْ لـــي بمهـــدكَ تَرعَـــاني لواحظُـــه

ورُبَّ مُســـتَقيظٍ يَرْعَـــاهُ نَعْســـانْ

لـــو أســـتَطيعُ لوقَـــاهُ وظَلَّلَـــهُ

قلبٌ تتام الدراري ، وهو جَـوّالانْ[1]

أبيْـتُ أُزجـي إليـه كـلَّ ضـاحكةٍ

مـــن الأمـــانّي يُـــوحيهن فتّـــانْ

أزحـــي عـــرائس أحـــلامٍ تيمّمَـــهُ

في زبرج بالحياء الغـضّ يَـزدانْ[2]

تمضي بـــه بـــين جنّـــاتٍ مزخرفـــهٍ

فـــيهنّ حُـــورٌ وأمـــلاكٌ وولْـــدانْ

وسَـــاجعاتٌ تناغيـــه علـــى كثَـــبٍ

حتّـــى يُنيمَـــه مـــنهنّ إرنـــانْ[3]

إذا تنقَـــل أو أســـرى فمهبطُـــهُ

من خالص العسجد الوهّاج أفْـدانْ[4]

مســـتمريٌّ طيـــب مجناهـــا وبيحتهـــا

قلبٌ عرير ولحظٌ منـــه ســـكْرانْ [5]

١- الدراري الكواكب اللامعة والمقصود هنا حولان - متحرك مضطرب

٢- تيمه يذل تيم الشيء قصده ، ويممته قصده زبرج الزينة والوشي

٣- ساجعات يقال سجع الحمام يسجع سجعا هتف على جهة واحدة ، وسجع الحمام موالاة إصواتها على طريق واحد - ارنان الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند العناء أو البكاء أو صوت الحمام يقال أرنّت الحمائم في سجعها

٤- العسجد الذهب ، وقيل هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت - افدان قصور مشيدة

٥- العرير المخدوع من غرر يغره غرا وغرورا اي خدعه واطمعه بالباطل

وبات للقلب في جنح الظلام إلى
دبيب أخلامه صغو وإرعانْ [1]
حسبي السهادُ إذا ما نتّ أذكرهُ
وطرفهُ الأكحلُ الوسنانُ وسنانْ [2]
إني لأغنم وصلا في تمنعه
وعطفه ، وكلا الوصلين مفتانْ

يحاول الشاعر أن يبرهن على ما في نفسه من حب وشوق لمحبوته ، فهي ليست من أغمار من يلقي من النساء وليست من لون ما للنساء من قامات وأشكال ؛ إذ تمتاز بجمال يخالف جمالهن فهي جوهرة ؛ لما تحمله بين جنباتها من نفس أبية تعز على كثير من الناس ممن يتمتعون بالجمال الحسي الظاهر .

ونلحظ من هذا أن الشاعر لا يتغزل بالجمال الحسي للمرأة ، أو التعلق بمفاتنها وإظهارها ، وهذا بخلاف " ابن الرومي " الذي تعلق بالجمال الحسي الظاهر ، فراح يصف المرأة وصفاً حسياً دقيقاً . لعل ذلك يحد من ثورته نحو شهوة الحس والمتعة ، لكن " العقاد " يرى محبوبته وقد تحملت بهدد النفس الغنية بالعزة والكرامة فهي في محملها جوهرة مكنونة ، جعل من نفسه رقيباً عليها ، وهو لا يملك منها شيئاً . بل إنه من شدة غيرته عليها يجعل عليها عيوناً ورقباء يحرسونها من نظرات الآخرين

١- صغو : صغا اليه يصغى ويصغو صغوا وصغوا مال ، وأصغى اليه رأسا أماله ارعان : الاصغاء الى القول وقبوله

٢- وسنان : يقال امرأة وسنى ووسنانة فاترة الطرف شبهت بالمرأة الوسنى من النوم ووسنان الثانية : أي الذي احتاج سنة من النوم

ويؤكد الشاعر على أن محبوبته صعبة المنال ، وما ناله من وصل إنما كان عرضاً قليلاً ، دون سابق موعد مما يشعره بفقدها الذي هو كل حظه منها .

لذا نراه يتطلع إلى نظرة من عينيها ؛ لتضيء قلبه الذي أظلم وأصبح بعيداً عنه ، ودللها عليه ، الأمر الذي جعله لا يعقل ولا ينام ، فقد أقلب النجوم والكواكب ، وهو يقظ يتمنى لقاءها ؛ ليسكن من روعة قلبه المضطرب ، ويحدثها من ثورة نفسه المتشوقة إلى هذا اللقاء ، ونلمح هذا الإحساس من قوله :

لـــو أســـتطيعُ لوقـــاهُ وظلالـــهُ

قلبٌ تَنام الدراري ، وهـو جـوّالُ

لكن الشاعر لا يملك تجاه هذا التشوق إلا أن يهدي محبوبته تلك الأحلام والأماني التي هي من وحي جمالها ، في صورة تزهر على طهارة نفسه وعفتها ، فهي أي الأحلام تتسم بالحياء والطهارة فهي على صورة الحور العين والملائكة والولدان المخلدين ، فهو لا يريد أن يفزعها في مهدها ويريد أن تستيقظ على شدو الحمائم وغناء الطيور .

وهذه صورة تتناسب مع ما عليه محبوبته ، من النعيم والعيش الرغد الذي تقلب فيه ليلاً ونهاراً

ولما أحس الشاعر باليأس من لقائها والوصول إليها جعل من قلبه - في جنح الظلام - رقيباً على أحلامها لعله يحظى بسماع تلك الأحلام ، ولما كان هذا صعباً إدراكه فقد رجع الشاعر إلى نفسه وما أصابها ، فأيقن أنه لا يملك إلا أن يعيش على ذكراها ويكتفي بالسهر والتفكير في جمال عينيها ، ولم لا وقد رأى في سمعها وصلا وقرباً وفي لقائها وعطفها فتنة ومتعة أو كلا الوصلين معاً

وهكذا نرى أن الشاعر قد أحب محبوبته في قربها ووصلها ، كما أحبها في بعدها ونأيها وتتدللها ، مما يدل على صدق شعوره وإخلاصه في حبه لها

كما نلحظ أنه حين تسامت فيه النفس عن غريزة الشهوة والحس ، بل يكفيه أن يبيت ليلة مفكراً في جمالها وحسنها دون أن ينعم بلقياها ، مهما كلفه ذلك من شقاء .

ومن هذا نرى أن " العقاد " قد استطاع أن يعبر عن رأيه في الحب والمرأة ، فرأى أن الحب لكثرة عناصره أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة لأنه عرضة لافتراق الهوى في النفس الواحدة حين تتناقض الرغبة والكرامة أو تتناقض أسباب الألفة وأسباب النفور ، وعرضة لافتراق الهوى بين نفسين اثنين لا تزول الحواجز بينهما كل الزوال وإن أفرطا في المودة والوفاء [1] .

ومع ذلك فلابد للإنسان من خوض تجربة الحب ؛ ليعرف نفسه ؛ إذ إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب . وأنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ، ومن عطف وجمود ، ومن رحمة وقسوة ، ومن خفايا وظواهر ومن فجيعة وضحك ، ومن حكمة وحماقة .. من إنسانية وحيوانية إلا من خلال الحب الذي هو ومعرفة النفس صنوان [2]

لذا فقد رأيناه وقد أصناه الحب ، وأصابه السهاد والقلق ، مع علمه أن المرأة التي استحوذت على قلبه هي من أكدر حبال الحياة ، ومن تعلق منها بسبب فقد تعلق من الحياة بأسباب ، وخاص من الدنيا في أعمق الغمرات ، ولا يرفض المرأة والحب إلا من يرفض الحياة [3]

١- انظر هذه الشجرة عباس محمود العقاد صـ ١٨٥

٢- انظر . يسألونك - العقد صـ ٤٨

٣- انظر . مطالعات في الكتب والحياة - العقاد صـ ١٥١

وإذا كانت هذه نظرات " العقاد " ورأيه في الحب ، فلا غرابة أن نسمع منه تلك النغمات العذبة الساحرة التي أباح فيها بمكنون نفسه ، ورأى العالم في تقدم المحبوبة ووصلها على السواء :

ويستمر العقاد في التعبير عن تجربته من خلال دقائق شعورية فياضة فيقول

ما ضرّ من نال في حين سعادته
إن فاتهُ في طويل الدهر أحيان
إذا جنيتَ من الأيام زهرتها
فاقنعْ فسائرها شوكٌ وعيدان[1]
ولا وربِّكَ ما بالنفس مقتنعٌ
أكانَ نجحٌ لها أمْ كانَ حرمانُ[2]
فإن رؤينا ، فبعضُ الرأي مظمأة
وإن ظمئنا ، فما يرتاحُ ظمآنُ
أيُّ الفريقين أحمى لهفةً ووجى؟
من ذاقَ أو لَمْ يذقْ ، فالكلُّ لهفانُ[3]

يا ليلةً حُطمت أنوالُ حائكها
فلا يحاكُ لها في الدهر ثُنيانُ[4]

١- عيدان كل ما جرى فيه الماء من الشجر
٢- نجح النجاح الظفر بالشيء والفوز به
٣- أحمى حمى النهار ، وحمى التنور حمياً أي اشتد حره وحمى الفرس حمى سخن وعرق والمعنى أي الفريقين اشد لهفة وجى الوجى التعب والحمى والتنور ، ووجي لتوعر المشي
٤- ثنيان اثنتي من الرجال بعد السيد وهو الثنيان . والثنيان بالضم الذي يكون دون السيد في المرتبة ويقال للشيء يجيء ثانيا في السوود ثنيان وثنى والمعنى أن هذه الليلة ليس لها نظير في الجمال والبهاء . حائك أصله حوائك بحوكه حوكا وحياكا وحياكة نسجه ورجل حائك اي ناسج

العيشُ من قبلها شوقٌ نعمتُ به
والعيشُ من بعدها ذكرٌ وتحنانْ
طالتْ ولا عرو فالجنّاتُ خالدةٌ
وفي الوصال من الحنّات ألوانْ
أصبحتْ والله لا أدري بحيتها
أليلةٌ سلفتْ أمْ تلك أزمانْ
وكيف لا وهي شطرٌ حين أحسبُها
والعمرُ شطرٌ ، وفيها عنهُ رُجْحَانْ[1]
لقد سقانا الهوى خمراً معتقةً
صبابها قبلنا شيبٌ وشُبانْ [2]
هيهات لا تبلغُ الصهباءُ نشوتها
ولو تناول منها البحر نشْوانْ [3]
فاض الهيامْ على قلبي ففاضَ به
نبعٌ له من وراءِ الدمع سَطآنْ [4]
ودتْ والدمع في عيني محتجرٌ
لو نال منه على خدي غدرانْ[5]

١- رجحان رجح الشيء يرجع وجوحا ورجحانا (بالضم والفتح) مال وثقل والمعنى ان هذه الليلة تزيد عن شطر عمر الشاعر
٢- معتقة اي التي حبست زمانا في طرفها حتى عتقت أي قدمت - صبا يصبو صبوة وصبوا اي مال الى الجهل والصبوة . والمعنى ان هذه الخمر قتلت الشباب والشيب
٣- نشوان يقال لشيء الرجل من الشراب نشوا ونشوة سكر فهو نشوان اي سكران
٤- سَطآن شواطيء
٥- محتجر اي تحجر الدمع في العيون غدران مستنقع ماء المطر

أمسيتُ أرشفُ شهداً من مراشفه
والسَّلسبيلُ بعلياه غيرانُ[1]
والنيل تجري لهُ في كلِّ ناحية
جداولٌ لؤلؤياتٌ وثُغبانُ[2]
يقودنا حيثُ شاء الموجُ واطَّردتْ
أمواهُهُ ، فكأن الفُلكَ وسنانُ
حتى تصرَّم جنح الليل وانبثقتْ
من كلِّ مطلعٍ للصبحِ عِقدانُ[3]
فما أفقنا وعينُ الصُّبحِ شارقةٌ
وما هجَعْنا وغولُ الليلِ سهرانُ[4]
بنا سوى الشمسِ والشُّهبانِ نرصُدُها
شموسُ أنسٍ مُصيئاتٌ وشُهبانُ

ما زال الشاعر يسجل بقريحته ويرسم بريشته أصداء نفسه الحالمة ، وما يعتمل فيها من حب وشوق ، تجاه محبوبته وما في طبيعتها من جمال روحي وفكري ، يُدخل السعادة والنعيم في قلبه ، وكانت لحظة من اللحظات أو ليلة من الليالي ، وهذه اللحظات كفيلة بأن تجعل المحب قانعاً بما حباه فيها من وصل وقرب ، وبخاصة وأن الحياة لا تسير على نهج واحد من الصفاء ، لكن النفس مجبولة على الطمع وعدم القناعة ، سواء أكان في ذلك خيرها أم هلاكها وحرمانها .

١- الرشف : مص الماء والريق ونحوه ، والرشف : ماء قليل يبقى في الحوض ، والرشوف : المرأة الطيبة الفم
٢- الثغبان : الغدير يكون في ظل جبل لا تصيبه الشمس ، فيبرد ماؤه ، والجمع ثُغبان وثعبان
٣- عقد : عمود الصبح : ما تنتشر من ضوئه وهو يستطير منه ، وسمي عمود الصبح على التشبيه
٤- هجد : نام ، والهجود النائم

ويعيش المحب في كلا الحالتين في لهفة وشوق وتعطش داق الحب أم لم يدقه . وهذا ما جعل الشاعر يتساءل قائلاً

أيُّ الفريقين أحمى لهفةً ووجىً؟
من ذاقَ أو لَمْ يذقْ ، فالكلُّ لهفانُ

وعلى الرغم من ذلك فإن سعادة الحب لدى " العقاد " لا تغيب عن نفسه وقلبه. فنراه يتحدث عن النعيم ولياليِ الوصال التي قضاها مع صاحبته ومحبوبته فيقول واصفاً تلك الليلة : أنه نعم فيها بالوصل من محبوبته . وأنه لجمال هذه الليلة وما فيها من نعيم يصعب تكرارها ؛ إذ لا نظير لها في الجمال . فقد حظت أنوال حانكها . وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وحلالها وصلاً ونعيماً ونعماً . وبعدها كان العيش ذكراً لها وتحنانا إليها . ولم لا تكون بهذه الصورة . وقد طالت وطال فيها الوصل والقرب . ولا عجب في طولها ؛ لأن الجنات خالدة ودائمة وفي الوصال والنعيم ألوان من هذه الجنات . بل إنه لطولها وتمتعه فيها بهذه الألوان من النعيم لا يدري أهي ليلة أم أنها أرمال . ويبالغ الشاعر في ذلك فيرى أنها تساوي شطر عمره بل تزيد عليه وتثقله

ويستمر الشاعر - بإحساسه المتوقد وعواطفه الجياشة الصادقة في رسم ما حدث في هذه الليلة من ألوان النعيم والقرب . فيرى أنها كانت تشبه الخمر المعتقة التي تفتق الشيب والشبان . لكنها لم تؤثر فيه ولم يعب عن وعيه ؛ إذ إنه يحيا بهذا الحب الذي فاض على قلبه وتمنى لو سال الدمع من عينيه أنهاراً تعبيراً عن فرحه وسروره بهذا اللقاء . الذي نال فيه كل ما يشبع نهمه ويحد من شوقه ويبل علته وظمأه بهذا الرشف العذب . الذي يشبه السلسبيل في عليين .

وكعادته يختلط بالطبيعة التي طالما لجأ إليها، ليرسم صورة هذه الليلة فيرى أنه قد أحيط بجداول النور [illegible] الصافية تجري هنا وهناك ويحمله الموج حيث يشاء، ويتدلى [illegible]. وترى الكواكب والنجوم تضيء جنبات الكون حتى صار الليل وكأنه نهار [illegible].

من الملحوظ هنا أن [illegible] جعل الليل ظرفاً للهناء ولقاء المحبوب والاستمتاع بالقرب منه، [illegible] ظلامه وصار منيراً كأنه نهار. وقد أطال الشاعر الليل حتى رأى هذه الليلة وكأنها أزمان، لكنها في النعيم والهناء، وهذا بخلاف بعض الشعراء الذين شكوا من طول الليل وشدة ظلامه، لما تحملوه من الهموم والأحزان، بل إنهم جعلوا الليل سبباً في تلك الهموم. فهذا "امرؤ القيس" يشكو من طول ليله وما نزل به من أنواع الهموم حتى تمنى زوال هذا الليل، فيقول:

ألا أيّها الليْلُ الطويلُ ألا انجلي
بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثلِ
فيا لك من ليلٍ كأنّ نُجومه
بأمراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جندلِ

ولعل هذا يرجع إلى نفسية الشاعر ومزاجه، وبخاصة إذا علمنا أن "العقاد" قد رأى النعم في وصل المحبوبة وهجرها على حد سواء، فيعيش ليلة حالماً بها وبنهاره ذاكراً لها وهذا لم يتوافر "لامرئ القيس" الذي جعل من ليلة ظرفاً للهم والحزن.

obeikandl.com

ويستمر الشاعر في وصف هذه الليلة ، فيقول :

سَمِعتُ أعذبَ ما يفتَرُّ عنهُ فَمٌ
من الحديثِ وما سَاعتهُ أذانُ[1]

فصاحةٌ لَثمتْ رُوحي بها شَفةٌ
لو ذاقَها النَّحل لم يَمرأهُ ريحانُ[2]

أنفى لرين النُّهي من كل ما نَقَشتْ
على الصَحائف أعرابٌ ويونانُ[3]

تهتزُّ بين طَوايا النَّفس نَبْرتُها
كما يَموجُ لضَوءِ الشَّمس خَيْطانُ

ذَر الدساتينَ تَخْدو وهي ضَاربة
من ليسَ تحدوهُ أشواقٌ وأحزانُ[4]

وأطربُ لصوتٍ تعالى أن يُحاكيهِ
حالٌ ، وتُعربَ عن فَحْواه ألفَانُ

ما أنشدَ النَّاسُ إلا كي تُذكرَهُم
صوتَ الحبيب أناشيدٌ وألحانُ

ولا تعلَّمَ وزنَ القولِ شَاعرُهم
إلاّ وكانَ لَهُ بالنَّبضِ ميزانُ

١- يفتر : فتر الماء : سكن حره ، وفتر السحاب أي قطر وفرغ مازه ، والمعنى انه سمع كلاما عذبا رقيقا - ساغ : ساغ الشراب في الحلق بسوغ سوغا وسواغا : سهل مدخله في الحلق ، وشراب سائغ وأسوغ : عذب

٢- لثم : اللثام : لثمت : اذا اراد التقبيل ، ولثمت فاها اذا قبلتها - واللثام ما كان على الفم من النقاب - مرأ : يقال مرأ الطعام : صار مريئا ، ويقال مريء لي هذا الطعام مراءة اي استمرأته

٣- النهي : العقل : انفى النهي : نقيا وابعدا

٤- الدساتين : جمع دستان وهو الوتر : والمعنى ان المغاريد يؤثرها انما تستحث الى الشوق من لا شوق عنده . وما من هو مفعم بالشوق فلا حاجة به اليها

ما زلنا مع الشاعر وهو يصف لنا - بإحساسه المرهف ونفسه المفعمة بالحب والشوق - هذه الليلة التي نعم فيها بوصل محبوبته ، فلم يدع جانبا من هذه الليلة إلا وصفه وصفاً ينم عن حب يلف كيانه ، ويجعله في حالة من الهيام والوجد . فاستمتع بفصاحتها وجدينها الحلو المعسول الذي سرى إلى الأذن سهلاً مستساغاً ، وداقت روحه طعم حلاوته التي لو داقها النحل ما استمرأ الريحان .

ولما كانت هذه هي مشاعره الفياضة بالحب والشوق ، أراد أن يبين أن هذه المشاعر نابعة من قلبه وعقله ، وليس عليهما عتامة أو غمامة أو جهالة؛ كي لا يظن أحد أن الشاعر لا يعي ما يقول ، أو أن ذلك مجرد حُلم ، لكنها الحقيقة والإحساس الصادق الذي صور نبرات المحبوبة تسري بين حنايا نفسه ، وتموج كما يموج الخيط الرقيق من ضوء الشمس الذهبي ، في بشوة وفرح.

كما أن هذا الإحساس وذلك الشوق لا يحتاج إلى ما يستحثه أو يخرجه من أعماقه . إنه شوق طبعي تعلق بقلبه ، جعله يطرب لصوت محبوبته . ذلك الصوت الذي لا يشابهه صوت في الجمال والرقة والعذوبة ، والذي ما أنشد الناس إلا أملاً في سماع مثل هذا الصوت الرخيم والنغمات العذبة الرقيقة ، وما نظم الشعراء إلا على تلك النغمات والترديمات.

وهكذا استطاع الشاعر التعبير عن تجربته ومشاعره ، التي صدر فيها عن إحساس غامر بالحب والشوق ، تمثل في هذا اللقاء وفي هذه الليلة ، التي ذاق فيها طعم النعيم والقرب من المحبوب ، وفاض فيها الحب على قلبه فراح يرشف شهدا أعذب من السلسبيل في عليين ، وطرب لصوتها الرخيم العذب ، وفي هذا دلالة على أن " العقاد " قد أحب المرأة ودان لها أحبها بالجسم والروح معاً ، أحب قدها ووجهها وصوتها وراح يذرف الدموع الملتهبة من شدة الوجد ويعب من الرشيف .

ويقتل الوجه والدين . لعله يبرد غلته ويطفيء لهفته . وفي قصيدة أخرى ما يؤكد هذا المعنى .

وألثمُهُ كيْما أبرد غلّتي
وهيهاتَ لا تلقى مع النّار راويا
فقبّلتُ كفّيه وقبلتُ ثغْره
وقبلتُ خدّيه ومّا زلتُ صاديا
كأنا نذودُ البين بالقرب بيْننا
فنشْتدُ من خوفِ الفراقِ تدانيا

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يُقبل على المرأة أو لم يفعل ذلك لجمالها أو للتشهي أو التلهي وإنما أقبل عليها لدانها[1] ، وهو يصرح بذلك . فيقول :

نبئيني فلستُ أعلمُ ماذا
منك قلْبي بحسنه مشْغوف
كلّ حسنٍ أراك أكبر منّهُ
إنّ معْناك تالدٌ وطريف
لستُ أهواك للجمال وإنْ كا
ن ذكاءً يذكي النهى ويشُوف
لستُ أهواك للدلال وإن كا
ن ظريفاً يصْبو إليه الظّريف

١- انظر ،الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في ادب العقاد/ نعمات أحمد فؤاد ص١١٧ط٢ دار المعارف ١٩٨٠

ومن ثم نرى أن " العقاد " أحب المرأة حسداً وروحاً وجمالاً ، حباً حقيقياً عبر عنه في كلمات نثم عن حيرته في فهم الحب ، فيقول [1]: " عند الحب سهر أحلى من حُلم النوم . ونوم أيقظ من سهر الخلود .. عند الحب نور يتلوى الشمس والقمر وموعد ينسى الليل والنهار .. عند الحب حياة يهون من أجلها الموت . وموت نباع من أجله الحياة ".

ومازال يجسد هذه المعاني في بقية قصيدته (الحب الأول) فيقول :

يا أملح النّاس هلاّ كنتَ أكبرَهُم
روحاً ، فيتفقا روحٌ وجثمانْ [2]

صدّقت باطل ما قالوا كأنهمو
لا يكذبونَ ، أو أن العذْلَ قرآنْ [3]

أما علمتَ بأنّ النّاس ألسنةٌ
سودٌ لها غير ما تُبْدي إبطانْ [4]

أحرى مزاعمهم بالشّك أسيرُها
فالحقُّ متّئدٌ والإفكُ عَجْلانْ [5]

وربَّ قولةِ زورٍ قالها رجلٌ
منيم قَطافَ بها في الأرضِ رُكْبانْ

١- آخر كلمات العقاد ، عامر العقاد صـ ٦٧ ، دار المعارف ١٩٦٥

٢- ملح الملح خلاف العذب من الماء ، والملح الحسن من الملاحة ، وقد ملح بملح ملوحة وملحا حسن وهو المقصود هنا وعليه يكون ملح من أفعال الأضداد

٣- العذل اللوم

٤- أبطان الباطن خلاف الظاهر ، والباطن المحتجب عن أبصار الخلائق وهو اسم من أسماء الله

٥- متئد متأني في الأمر وهو من الفعل تؤد أو من وأد وتكون التاء في الأولى غير أصلية - الإفك - الكذب وقيل الإثم . أو المعنى هنا الكذب والباطل عجلان العجل والعجله السرعة خلاف البطء ، والمعنى أن الحق ثابت والكذب والباطل زائل

تـــداولوها فراحـــتْ فـــي مَـــذاهبهم
شريعةً نَقْضُها كُفـــرٌ وعصْـــيانُ [1]

مـــا كثـــرة المثبتـــينَ الأمـــر تُثبتـــهُ
ولا بقلـــتِهم للحـــقّ إيهـــانُ [2]

فـــإن أُلـــف ضـــريرٍ لـــيس يَعـــدِلُهم
بالمبْصرِ الفَردِ يومَ الشَّـــك ميـــزانُ

فاضـــربْ بنعلـــك دَعـــواهُم فكلهمـــو
خُوَّاض لَيلٍ،وهم في الصُّبح عميانُ[3]

وبعد أن أسمعنا الشاعر نصات قلبه . وكشف لنا عن خلجات نفسه . واستمتاعه بالقرب من المحبوب ، حَثِيَ من الواشين والحانقين ، أن يزرعوا بدور التفاق والبعد بينه وبين محبوبته . فراح يناجيه ويناديه أن يكون أكبر من هؤلاء جميعاً روحاً وجسماً . وألا يصدق الناس فيما يقولونه : إذ الكذب واللّوم سجية مركوزة في طبائعهم . وأنهم يظهرون بألسنتهم السود خلاف ما يبطنون . وأن مراعيهم باطلة لا بقاء لها في وجه الحق الذي يبقى ويدوم . " فأمّا الزَّبدُ فيَذْهبُ جُفَاء وأمّا ما ينفعُ النّاسَ فيَمْكُثُ في الأرْض".

ويحاول الشاعر جاهداً أن يبرىء ساحته ما نسب إليه . وأن ما حدث ما هو إلا قولة زور قالها واحد من الناس فسرت بين الناس كسريان النار في الهشيم .

١- نقض النقض افساد ما أبرم . والنقض المراجعة والمراودة والمخالفة والأخيرة هي المعنية في البيت والمعنى أن مخالفة ما تعارف عليه الناس - ولو كان باطلا - أمر مستحيل في عرفهم

٢- ايمان الايمان الحري والتحقير والمعنى أن الحق لا يبان ولا يحري ولو قل انصاره

٣- خواض اصل الخوض المشي في الماء وتحريكه . ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه في غير وجهه حيث امكن . والخوض في الكلام ما فيه الكذب والباطل وهو المقصود في البيت ومنه قوله تعالى
" وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره. "

حتى أصبحت عقيدة وشريعة في أذهانهم ، لا يستطيعون الفكاك منها أو الرجوع عنها . لكن هذا ليس دليلاً على صدقهم فالحق لا يضيع بقلة أنصاره كما أن الباطل لا يدوم بكثرة من يؤيدونه

وهذه حقيقة صاغها الشاعر ؛ ليبرهن على عمق تجربته في الحياة . ومعرفته بطبائع الناس ومجريات الأمور .

ولذا نراه يأمر محبوبته بأن يضرب كلام الناس بنعله وأن يضعه تحت أقدامه فكلهم كذابون وخواصون ويصرفون الأمور في غير نصابها . وعندما ينبلج نور الحق يتعامون عنه ؛ إذ يتخذون من الليل ستاراً لمآربهم وشرورهم . ولا يستطيعون مقاومة الحق والنور الذي يؤذي أعينهم . ويصيبهم بالعمى .

ولعل هذه الدفقات الشعورية ، تدل على صدق الشاعر في حبه ، خاصة وأنه الحب الأول في حياته ؛ لذا نراه بكل ما أوتي من قوة شعورية . وإحساس مرهف . يحافظ على علاقته بمحبوبته . مهما وشى الواشون وزعم المحللون .

وهذه حقيقة تصلح للناس أجمعين . وخاصة بين المحبين . كما يمكن أن تكون منهجاً يسيرون عليه في كل علاقاتهم وتعاملاتهم .

وفي النهاية يلجأ الشاعر إلى ربه . ويناجيه ويطلب أن يهبه بدراً ينير به ظلام قلبه . كما وهب الليل بدراً أضاء الأكوان .

ثم ينفث هذه النفثة التي توحي باغترابه بين أهله وذوي رحمه وأصحابه وجيرانه الذين ليس له دخل في انتسابه إليهم ؛ لذا فإنه يريد أن يؤنس نفسه لا بهؤلاء الناس . وإنما بالحور العين . رمز الطهر والصفاء . والنعيم الذي لا ينقطع . والكواكب النيرة التي تهدي الضالين . وتنير دروب السالكين . وفي هذه النفثة يقول:

يا واهبَ اللّيل بَـدْراً هَـبْ لمشـبهِهِ

نذراً يضيءُ لهُ والقلـبُ غَيْمـانُ[1]

أنا الغريبُ ولي بـينَ الـورى رَحِـمٌ

بالرّغمِ مني ، وأصْحابٌ وجيـرانُ[2]

وابعثْ لَنا الحورَ فالإنسانُ لـيس لنَـا

بخالصٍ منـهُ أحبـابٌ وأخْـدانُ[3]

أو الكواكـبَ سِـرباً بَيْننـا غـزلاً

إنّ الفَضـاءَ بـذاكَ السـرب مـلآنُ

وهكـذا طـوف بنـا الشـاعر مـن خـلال هـذه التجربـة ، وأوقفنـا فيهـا علـى صـدق مشـاعره ورهافـة إحسـاسـه ، ورأينـا كيـف اسـتطاع أن يعـبر عـن تلـك التجربـة تعـبيراً ينم عما في نفسه من حب وشوق .

١- غيمان الغيم السحاب وقيل هو الا ترى شمسا من شدة الدخن وجمعه غيوم وغيام

٢- الورى الخلق وقال ابني جني ان الورى لا يستعمل إلا مبتدا وسوع هذا ان كلام العماد في معنى النفي فكانه يريد أن يقول انه بالرغم من كثرة اهله وأصحابه الا انه ليس له في الورى حبيب

٣- اخدان الخس والخدين الصديق والجمع أخدان والخدن هو الذي يخادنك ، فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾

الملامح الفنية والتعليق

هذه القصيدة عارض بها " العقاد " قصيدة " ابن الرومي " النونية ، التي قالها في مدح الوزير " اسماعيل بن بلبل ، وكان بنيّ الرومي قد بدأها بمقدمه غزلية طويلة ، وبراعة في وصف محبوبه ، وصفاً حسياً ومعنوياً ، ثم وصف النساء عامة وما يتمتعن به من كيد ومكر وخداع . ثم انتقل إلى غرضه الأصيل وهو مدح الوزير إسماعيل بن بلبل ، لكن العقاد حينما عارضه لم يعارضه إلا في المقدمة الغزلية التي راقت له وأطلق على قصيدته عنوان (الحب الأول) ، ولذا فإن الغرض الأصيل في هذه القصيدة هو الغزل كما يوحي عنوانها

وإذا كان " ابن الرومي " قد نهج في قصيدته التي مطلعها

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق زينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

نهج القدماء في إنشاء القصيدة الغنائية ، لكن بصورة متطورة ، فرضتها طبيعة الحياة في العصر العباسي ، فإن العقاد يعد رائداً من رواد التجديد في الشعر ، وأحد الداعين إلى بناء القصيدة بناء موضوعياً متماسكاً؛ بحيث لا يستقل بيت عما سبقه وما لحقه ، ولا يمكن الانتقال من موضوع إلى آخر ، لذا فقد جعل موضوع معارضته " لابن الرومي " هو الغزل ، لكنه على الرغم من دعوته إلى الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة إلا إنه بدأها بمقدمة في وصف الطبيعة وسحرها ؛ تمهيداً للدخول في موضوعه الأصيل وهو الغزل ، وهو في ذلك متأثر " بابن الرومي " الذي عشق الطبيعة ورأى فيها جمال المرأة وحسنها .

والحق أن مقدمة قصيدة " العقاد " جاءت متناسبة مع الغرض الأصيل لموضوعها الذي وضعت من أجله وهو الغزل ؛ إذ إن هناك علاقة - في مفهوم الشاعر - بين الطبيعة والمرأة ؛ لذا تأتي المقدمة وكأنها جزء من القصيدة لا يشعر القارىء بأن هناك فاصلاً بين المقدمة والموضوع.

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة هو أن " العقاد " قد وظف الطبيعة واستخدمها بما يتناسب وميوله واتجاهه في الغزل ، فنراه قد استعان في موضوعه بعناصر الطبيعة الجميلة الساحرة ، من زهورات رائحة شذية ، وورودات ألوان باهرة ، تثير النفس وتحرك العاطفة ، وتبعث على الراحة، وتلفت الأنظار. وهذا دليل على أن غزله معنوي ، تحس من خلاله حرارة الشوق وتحرق الوجدان . وليس غزلاً حسياً مادياً . والأبيات من ١ : ٤ توحي وتؤكد صدق ما ذهبنا إليه .

وهكذا نرى أن الشاعر قد وظف الطبيعة توظيفاً يتلاءم مع ميوله واتجاهه في الحب والغزل ، كما دل استخدامه للطبيعة على حبه لها وولعه بها .

وباستقراء القصيدة نرى أن " العقاد " قد عالج موضوعه بما يتوافق وتوجهه في الحب والغزل ، وقد سيطرت عليه نزعته الخاصة في هذا الموضوع .

فحينما ننظر إليه لنرى كيف عالج وصف محبوبته ، وعبر عن تجربته نجد أنه وصفها بالجمال الخالص في مظهرها ومخبرها وروحها وجسدها ، وفي هجرها ووصلها . ولعل ذلك راجع إلى مزاجه وهيامه بحبه، فاستوى عنده وصالها وهجرها، ورأى فيهما متعة ولذة ، وقد استطاع " العقاد " أن يعبر عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس بقوله :

بالغصن شبه من ليس يعرفه
وإنما هو الرائين بستان
يا من يراني غريقاً في محبته
وجداً ويسألني هل أنت غصان

واصنعة الحب أبديه وأكتمه

ومن عنيت به عن ذاك غفلان

إن التعاطف بالأرواح بغيتنا

وفي الوجوه على الأرواح عنوان

كما نلحظ في الأبيات إشارة صريحة إلى أن الشاعر لا يريد التواصل المادي. بل يهدف إلى التواصل والتعاطف الروحي الذي يملأ بالأنس والبهجة والسرور أوقاتاً طويلة . ولا يتحقق ذلك من التواصل المادي . الذي يزول بزوال أسبابه ودواعيه ومن ثم نستطيع أن نقول أن الشاعر قد أعطانا خلاصة فكره وعصارة تجربته وخبرته في الحب والغرام ومعرفته بطبائع النساء .

هذا من ناحية الموضوع وكيف عالجه الشاعر وسار فيه . أما من الناحية التشكيلية فإننا نراه قد اختار ألفاظه ومعجمه الشعري بدقة فائقة وبراعة عالية حيث دلت ألفاظه وتراكيبه على ما يدور في خلده من مشاعر وأحاسيس . وكشفت عن تجربته وعاطفته كشفاً صحيحاً . وهذا ما ينبغي على الشاعر المجيد حين يريد معالجة تجربة من التجارب . فعليه أن يعتمد لنفسه كمّاً صحيحاً من الكلمات التي يجدم أو يعرض بها موضوعاً ما . فيجب أن تكون هذه الكلمات ملائمة ودالة على هذا المعنى الذي يسيرته . وهذا ما يطلق عليه المعجم الشعري . وهو بهذا الوصف يساعدنا على معرفة الشاعر ونفسيته . وذلك من خلال نوعية الكلمات التي يكثر دورانها في شعره ؛ إذ إن ما يعبر الشاعر عنه حقاً هو طبعه وشخصيته العميقة . وما يفصله وما ينفر منه . ومظهره ومعط حياته وبعوده وأبرانه وحبوبته وقتوره

ولذا فإن اختيار الشاعر لكلمات معينة يرجع لأسباب نفسية . أو لاتجاه شعري ؛ إذ إن لغة الشاعر جزء من تركيبته النفسية . وأن انتقاءه للكلمات

والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب من أعماقه .

وبناء على ذلك . فإننا إذا نظرنا إلى معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة نرى أنه كان يعرف الألفاظ والتراكيب التي تولد الانفعال . كما كانت لديه موهبة وقدرة على وضع الألفاظ في تتابع إيقاعي ، يدل على ما في نفسه من انفعال شعوري ، هذا بالإضافة إلى عنايته باختيار الكلمات التي لها حرس يحفي على دلالة الكلمة ملابسات ومشاعر في نفسه ، أو تكون بعيدة عن النفس البشرية بصفة عامة

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة من مختارات لغظية هي تلك الألفاظ التي توحي باندماجه في الطبيعة ، وتوحي بمكنون نفسه الشاعرة التي تعشق الجمال الطبيعي ، ولعله متأثر في ذلك " بابن الرومي " الذي كان مبرزاً في هذا المضمار ، ومن هذه الألفاظ ، زهر - أطيار - أفنان - الربيع - رضوان - وشائع النور - البستان - الأرض حالية - الماء - الشمس - الآفاق صافية - أنهار - النسيم - روض - ورد - الياسمين - أغصان - القرنفل - النفسج - الليمون - الليل - بلابل - كروان - الصبح - أنوار - الشرق والغرب - أسحار وأصلال - الفضاء - الفردوس - الطبيعة - النهار - شجر - عرلان - الحوت - حمائم - الدراري - طلام - موج - سلسبيل - شهد - النيل - النحل - البدر - الكواكب ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة ومفرداتها

كما نلحظ - كذلك - تأثر بعض المفردات التي توحي بالحب والسعادة والرضا والتفاؤل ، وتتناسب والموضوع الذي يتحدث فيه مثل يهنيك - طوباك - ينشد - رضا - نعيم الخلد - باسمة - تضحك - مستأنسات - ألحان - فرح - فرحان - المحب - عرس - محبة - وجد - محبين - الحسن - التعاطف بالأرواح -

حب الجمال - نجوى - أحضان - عفة - ندمان - جوهر - ضوء قلبي - ضاحكة - أغنم - وصل - عطف - سعادة - وصال - بهجة - الهوى - نشوان - أطرب - أحباب - أخدان - الحور، إلى غير ذلك من الألفاظ الرقيقة العذبة التي تشيع جواً من التفاؤل والحب في داخل القصيدة، وتوحي بتمكن نفسه العاشقة للحياة المتطلعة إلى الحب والجمال.

كما نلحظ - أيضاً - في معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة بعض الألفاظ الغريبة، وكان في استطاعته أن يأتي بغيرها؛ وبخاصة وهو الداعي إلى التجديد الشعري وتمسكه وإفادته من تراث الماضي وافتتانه به يصوره جعلت معجمه الشعري مميزاً عن شعراء عصره ومدرسته.

ولعل السر في استعماله لبعض الألفاظ الغريبة أنه كان يتعالى بها على معاصريه الذين كانوا ينظرون إليه نظرة متواضعة، من حيث المؤهل الذي وصل إليه، فما كان منه إلا أن استوعب الغريب والمهجور ليتخذه معجماً شعرياً خاصاً ليتحدى أصحاب المؤهلات العالية الذين لا يصلون إليه، أو ليتحدى شيوخ الشعراء - آنذاك - من أمثال: " محمد عبد المطلب " و" حفني ناصف " و" علي الجارم " من أصحاب مدرسة الأسلوب الذين لا يرون في الشعر إلا استعارة لطيفة، أو لفظاً فخماً جميلاً. ومن هذه الألفاظ الغريبة: ألاقة بمعنى متألقة - إرغان بمعنى إنصات - رقان أي مراكش - روع أي صباحه الوجه وجماله - تنصاح أي تنحلي - القنعان أي الذي يرضي بالقليل - البحر النحر أي الأصل - الأوهاق أي الأحابيل - ثغنان - أي غدران.

وهكذا نرى من خلال القصيدة أن معجم " العقاد " الشعري قد عبر عن حالته النفسية واتجاهه الفكري وتوجهه في الغزل، إذا اعتبرنا أن الأسلوب هو الرجل، أو أن الأسلوب صورة لصاحبه.

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الشكلية في القصيدة وهو الصورة والخيال ، فإننا نذكر أولاً أن الصورة الأدبية من الأمور التي ترتكز عليها الشعر . فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره ، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة النهاية ، وفي اختيار اللغة المناسبة ، والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة

أو هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق - الفني الحي - لوسائل التعبير التي ينتقيها الشاعر المطلق من عالم المحسنات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى ، في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين .

وهي بذلك تعد أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلى الآخر في سرعة وإيجاز ووفرة ، كما أنها أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها ، وربط الإحساس بها وتجاوب المشاعر لها ، وإحياء العاطفة وسحر النفس .

والصورة بهذا المعنى تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها وينسق ألوانها حتى تكون موحية ومعبرة عن خواطره وأفكاره ونحريته ، وأهم هذه الأدوات الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال .

والصورة الرائعة يصل الشاعر من خلالها وبها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم وإذا نظرنا إلى قصيدة " العقاد " لنتعرف إلى أهم خصائص الصورة الشعرية فيها ، نجد أولاً : أن مدرسة الديوان وعلى رأسها " العقاد " جعلوا الصورة الشعرية وسيلة لإظهار علاقة الشيء بنفس الشاعر، والتعبير عن الأثر النفسي الذي انطبع في وجدانه ومشاعره ، حتى يثير في نفوس سامعيه وقارئيه انفعالاً مماثلاً للانفعال

الذي أحس به ، وبذلك نقلوا الخيال - وهو أهم عناصر الصورة - من مجاله الحسي الذي كان يدور فيه وكان يعني بإعطاء صورة للشكل الخارجي للأشياء، وتحسبها لمجرد الجمع بين صفات حسية دون ارتباط بأحاسيس الشاعر ووجدانه ، إلى وسيلة لإظهار مراد الشاعر والتأثير به في نفوس الآخرين .

هذا بالإضافة إلى تحديدهم في الخيال وعدم الوقوف به عند استعمال العرب بل اتجهوا إلى أخيلة أخرى مستقاة من ثقافاتهم وقراءاتهم في أدب العرب ومن حاستهم الفنية المتذوقة للجمال .

لذا فقد احترط " العقاد " في سلك الشعراء الوصافين الذين يعمدون إلى تجسيد مشاعرهم تجسيداً حسياً في صورة حركية ، ذلك ليبعد الغربة عن نفسه ، وينفض عنه أسباب العزلة ، ويحيل الطبيعة إلى شيء أليف محبب.

وأول ملامح صور " العقاد " أنه ينقل الشيء الحقيقي ، لا كما يبدو للحس ، بل ينقل لنا شكل هذا الشيء في نفسه الشاعرة التي تنظر إلى معاني الأشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة ، كأن يمضي إلى الطبيعة ليتلقى منها صروباً عديدة من الإيحاء أو ينشد لديها المفتاح الرئيس لأنغامه الكبرى، ثم يخلق من خياله الانسجام الفني الذي يصوغه على هذا الأساس . يقول " العقاد " في تصوير الربيع والطبيعة

هذا الربيع تجلى في مواكبه
وهكذا الدهر آن بعدها آنْ
تفتحت عنه أكمام السماء رضا
وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمة
والأرض حالية والماء جذلان

الشـــمس تضـــحك والآفـــاق صـــافية

جلواء والـــروض بالأثمـــار فينـــان

وللنســـيم خفـــوق فـــي جوانبـــه

وللطيـــور تـــرانيم وألحـــان

فالصورة تمثل الربيع في جماله وروعته . لكن الشاعر ينفذ من خلال هذا المنظر الحسي . إلى طوية نفسه فيجد أن السماء قد رضيت عن الربيع فصارت صافية . وأصبح البستان في حالة من السرور والفرح . انسحبت على كل الأشياء في هذا البستان من ماء وورد وزهور . حتى الشمس بأشعتها التي ملأ الكون دفئاً وحرارة . خلع عليها من إحساسه وعاطفته فجعلها ضاحكة مسرورة . ويمتزج هذا السرور بتلك الحركة الرقيقة المنبعثة من ذلك النسيم الذي يلف جنبات الكون . فيغري الطيور بالغناء والشدو .

وهو هنا متأثر " بابن الرومي " الذي كان مولعاً بتصوير الطبيعة ووصفها . إذ كانت تمثل عنده حياة النفوس والقلوب . وأنها حياة تتحرك في كل المخلوقات من أرض وسماء ونبات وطير وماء وأثمار . إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة العديدة .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان " العقاد " هنا أكثر عمقاً في تصويره للوجد الذي ألّم به من المعشوق من " ابن الرومي " ذلك أن الأول صور الوجد في حديثه إلى الزهر الذي أمضه ثقل التمار عليه . وتناوب الطير فوقه ولا علمه أن يحزن مثل المحب . لأنه ليس بإنسان طامي ء معذب لكنه زيار ناعم الملمس . غض الندى . طري القوام .

وصورة أخرى " للعقاد " في هذه القصيدة . تتمثل في تصوير إحساسه بمحبوبته . فيخلع على الكون - بما فيه من عناصر مختلفة - تجربته وإحساسه .

فيصف هذه المشاهد من خلال آثار المحبوبة في نفسه . فيرى الكون وقد غمره الفرح والسرور . وسرت في أرجائه النهضة حتى لم يعد يتسع برحابته ليبدا الفرح ، وذلك العرس الذي أقامته الدنيا . وابتعد عنه الحب الذي أضناه الوحد والهوى . يقول : " العقاد ":

ضاق الفضاء بما يحويه من فرح
فكل ما فضاء الله فرحان
إلا المحب الذي لا حبه دنس
ولا مودته خب وإدهان
نفاه عن عرس الدنيا شواغله
إن الحداد عن الأعراس شعلان

فهذه صورة دقيقة وعميقة تلاءمت أجزاؤها وعناصرها . وأوشكت على الكمال . لولا تورطه في بعض الصور الجزئية التي أدت إلى تمزيق النسيج المتلائم ونهتك النظم والوحدة التي كان يترعمها وينادي بها في النقد. ومن هذه الصور الجزئية استعماله لكلمة (ضاق) التي تدل على الضيق والانحسار وكان الأولى أن يستعمل كلمة (فاض) بدلاً منها لتناسب مع عناصر الصورة . كما استعملها فيما بعد في قوله

فاض الهيام على قلبي ففاض به
نبع له من وراء الدمع شطآن

كما جاءت كلمات - خب . ادهان . نفاه . شواغله . الحداد . شغلان في غير مواضعها . مما شوه الصورة ومزق وحدتها . ولم تعبر عن مراده وإحساسه تعبيراً دقيقاً

ومن الصورة التي برع " العقاد " في تنسيقها ونسجها . صورة حركة نفسه وما بداخلها من خواطر ومشاعر . ومن ذلك تصويره لتلك الليلة التي نعم فيها

بالوصل مع حبيبته ثانيا لن تعود ؛ إذ حطمت أنوال حائكها . وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وبعدها كان ذكراً وتحناناً . وفي أثنائها تتمتع بالوصال . وألوان من الجنات الدائمة حتى طالت ولا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان ؟ . يقول " العقاد " في وصف هذه الحركة النفسية

يا ليلة حُطمت أنوال حائكها
فلا يحاك لهما في الدهر ثنيات
العيش من قبلها شوق نعمت به
والعيش من بعدها ذكر وتحنان
طالت ولا غرو فالجنات خالدة
وفي الوصال من الجنات ألوان
أصبحت والله لا أدري لبهجتها
أليلة سلفت أم تلك أزمان

فقد جمع في هذه الصورة حركة نفسه ومشاعره في الماضي والحاضر والمستقبل. وقد جمعت الليلة كل هذه الأزمان . واتسعت كاتساع الجنات ودوامها

لذا جاءت الصورة متحطمة الأبعاد . متناسقة الألوان وخاصة ألوان الجنات المليئة بشتى الثمار . مما جعل الصورة معبرة عن نفسية " العقاد " تعبيراً دقيقاً .

وإذا كان " العقاد " قد أوقفنا بهذه الصورة على شعوره أثناء لقاء محبوبته ففي المقابل يصور فقده لها تصويراً ينم عن حبه ووله وشدة وحده ومعاناته من هجرها . فيقول :

يا جوهراً بت أرعاه على أمم
رعى الشحيح ، ومالي فيه سلطان

ما في يـدي منـه لا عـين ولا أثـر

ولـي عليـه مغـاليق وأعيـان

قد نلت ما نلت من حظ بـه عرضـاً

وقد تـولى ، فحظـى منـه فقـدان

إني إلى الرعى مـن عينيـك مفتقـر

يا ضوء قلبي ، فإن القلـب مُـدجان

فقد استطاع أن يجمع في هذه الصورة بين صفات محبوبته ، ذلك الجوهر المضيء الذي بات يرعاه عن كثب وبين ذلك القلب المظلم بسبب محبوبته عنه ، كما أن استعماله لكلمة (الرعي) أعطت للصورة مساحة أكبر وأرحب مما لو استعمل كلمة (النظر) ؛ إذ إنها - أي الثانية - تعني النظر فقط ، أما (الرعي) فتعني الرعاية والاهتمام والمسئولية تجاه المحبوب . وهذه صورة جزئية أسهمت في إبراز الصورة الكلية وإيضاحها.

وبعد .. فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن تجربته أصدق تعبير وأحمله، من خلال معالجة فنية أوقفتنا على شاعريته وتمكنه من أدوات فنه ، التي ساعدته في الإتيان ببعض الصور العميقة والدقيقة - في الغالب - وإن اتسم البعض الآخر بالغموض والإبهام .

كما ينبغي أن نشير إلى أن " العقاد " في معارضته هذه قد استفاد كثيراً من " ابن الرومي " في قصائد متعددة